الصحراء لدى الكتاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر

أ/ رشيد رايس

أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها

جامعة تبسة ـ الجزائر

تعتبر الصحراء من أكثر المناطق الجزائرية التي استولت على اهتمامات الكتابات الفرنسية على الجزائر خلال القرن 19، ابتداء من ـ الدليل ـ Le guide[1] الذي أولى اهتماما كبيرا بالصحراء، إلى مختلف الكتاب الذين سمحت لهم الظروف آنذاك بزيارة الصحراء والبقاء فيها لفترة.

وتميز تصوير الكتاب للصحراء على أنها ليست ظاهرة طبيعية كغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى، بل كانت تحمل دلالات دينية لما يمثله فضاؤها الشاسع الذي يستحوذ على خيالات وعقول المبدعين، واعتبارها عالما مفتوحا لا تحده حدود، مما يجعل الإنسان فيه يشعر بالريبة والوحدة ومن ثم الشعور بالتعب أمام عالم عظيم يصعب على المرء التحكم فيه.

ومن جهة أخرى نجد مصطلح ـ Le Désert عند الغربيين محملا بما جاء في الإنجيل وهو ما تذهب إليه (M-SALINAS) بقولها عن الغربيين وهم يصلون الصحراء الجزائرية:

« بالالتقاء بسكان الجنوب يطور المسافر صورتية إنجيلية حيث تتكئ البنية العامة على وجود حياة الرحل و البدو.

يعتبر الإنجيل بالنسبة لكل الجيل الرومانسي مفجر طاقات شعرية، تكشفه طريقة للحياة وللتفكير أصيلة.

المعرفة النصية خاصة بإمكانها أن تكتسب بعدا واقعيا في الجزائر.

البلاد والإنسان ينسجمان ويتأقلمان بسهولة مع هذا التأويل التاريخي الأكثر منه ديني».[2]

(Y. LACOSTE – لاكوست) يقول:

« الصحراء مثل البحر، هي أحد المجموعات الطبيعية الكبرى المتميزة منذ آلاف السنين في معظم التمثيلات في العالم /.../ ولكن الصحراء، هي كذلك مثل البحر، كلمة، فكرة تحمل معنى كبيرا».[3]

وهو كلام يوضح كيف تشكلت الغيرية الجغرافية في القرن التاسع عشر عند الكتاب الغربيين وخاصة الفرنسيين الذين وصلوا إلى الصحراء الجزائرية وهو ما يهمنا في البحث.

ولعل أول ما يشد الانتباه عند هؤلاء الكتاب هو المفارقة بين الحضارة والأرض الخالية من كل حياة تقريبا. فالذي جاء يحمل رسالة حضارية ـ كما كانوا يدعون ـ لا تستوقفهم العلامات الحضارية في الشمال بقدر ما تدهشهم وتشد انتباههم الحياة الباهتة في الصحراء.

بالإضافة إلى ذلك أن إعادة الاعتبار للصحراء لم تحدث إلا مع القرن التاسع عشر. حيث في هذه الفترة بدأ يتعدد البعد الجغرافي والمناخي للموضوع كما بدأ يحدث تغير على مفهوم كلمة Désert. الذي كان يشير إلى مكان «**منعزل، فضاء شاسع، نادر السكان أو خال منهم لا يحمل علامات الثقافة، وتطبعه سمات الوحشية والخراب**».[4]

مع القرن التاسع عشر، أصبح لكلمة Désert مفهوم مغاير تماما، حيث أصبحت الكلمة تحمل معنى روحيا أكثر منه ماديا، ويرجع ذلك لكون كلمة: Désert تحمل دلالات دينية مصدرها الإنجيل.

حيث يؤكد الكثير من متتبعي دياكرونية مصطلح Le Désert بأن هذا الأخير كان المقابل الوحيد لعدة كلمات عبرية.

أولهـــا " TOHU " وجـــاءت هـــذه الكلمـــة فـــي الآية الثانية في La genèse /**بدء التكوين** وتعني الدمار الشامل.

ثانيـــا في "Le DETERONOME" أصبحت كلمة Désert تعني المفهوم المعروف اليوم وخاصة في القرن 19؛ مكان شاسع، مأساته افتقاده للمياه لدرجة يمكن للإنسان أن يموت فيه بسهولة.

ثالثا، كما استعمل مصطلح Désert لترجمة كلمة "HORBHAH" والتي تعني مكانا كان في القديم مأهولا؟ ثم أصبح خاليا بعد هجرته.

رابعا، كما استعمل نفس المصطلح لترجمة كلمة "ARBHAH" التي منها جاءت كلمة عربي، وتعني مكانا عقيما من دون ثقافة.[5]

ومن ثم فإن المرجعية الدينية لكلمة Désert كان لـــها تأثيـــر كبير في توجيـــه إبداعات الكتاب والشعـــراء؛ لكن ذلك كان ظاهرة خاصـــة لمن كتبوا وهـــم يـــزورون فلسطين خاصـــة ونذكر منهـــم على الخصـــوص CHATEAUBRIAND وLAMARTINE، اللذان ذهبا للشرق للبحث عن تابوت المسيح الذي ادعى (هيجل) أنه لم يعد هناك، في الشرق[6].

«يكفي ملاحظة هوس حلقة الصلب عند (ـ شاتو بريان ـ، ـ رينان ـ أو ـ لامارتين ـ). حيث يذهب الطابع الدرامي للنص الإنجيلي، و الطابع العدواني للقحط الشرق المتوسطي، بسهولة لصناعة وإنتاج ـ سلسلة من المفاهيم ـ التي تربط الصحراء بالدمار والجدب والخراب، إلى الشعور بالخيبة والنكبة، الرحم المناسب لتنامي السوداوية الكئيبة، لنقل المرضانية الشرقية».[7]

(فرومونتان FROMENTIN) ، يتكلم عن الصحراء الجزائرية كمرجعية دينية و لكن بعيدا عن هذه السوداوية وهذه الكآبة، حيث يتكلم عنها و كأنه يتكلم عن أصول يحن لها، وهذه الأصول تتمثل في العالم الصافي، الخالص، العالم الروحي، ومن المشاهد التي يصورها (فرومونتان FROMENTIN) مشهد راع يحرس قطيعه فيقول:

« منتصبا على شقة جدار منهار، بقية، لست أدري لأي أثر، ربما روماني، ربما وندالي، ربما بيزنطي، ربما تركي، ربما عربي. الإبن الأكبر، شاب يبلغ العشرين، يحرس قطيعا من الغنم والماعز الأسود. كان يتنفس في حلاج بدائي، ويسحب، ليس بالضبط موسيقى، ولكن أصواتا بدون وزن ولا ريتم، وكان الريح يمددها

بشيء من السوداوية على البراح، أين كان الكلب الحارس ذا الأذنين الطويلتين يبدو متأثرا كونه كان يعوي.

على الجانب هناك، كان العجوز هناك، يمشي متكئا بذراعه على طفل كبير، يبدو أنه يبلغ السادسة عشر. كلاهما كان يلبس بدلة الرعاة، الضيقة والقصيرة: سترة ملتصقة بالقامة، وقنلسوة من اللبد المضفور، الخف ذو الأحزمة في جلد خروف.»[8]

وإذا كانت الناقدة الفرنسية(M. SALINAS)، تفسر هذه اللوحة لـــ(يفرومونتان) على أنها تحمل مرجعية دينية حيث ترى فيها أنها تمثل نظرة إلى إسحاق وابنه يعقوب وهما يعيشان الحياة الرعوية، الصحراوية[9]. فإن (فرومنتان) يؤكد ذلك، برصده لمشهد تحرك القبيلة وسط الفضاء الصحراوين وتشبيه ذلك بهجرة إسرائيل، واعتبار تحرك القبيلة هذا وتنقلها:

« يجدد، هنا، أمام أعيننا، في عمق العصر الحديث، على بعد خطوتين عن أوربا، هجرات إسرائيل».[10]

الصحراء هي إذن هذا التناثر المعبر أو المرعب بين الاقتراحات. المشاهد الطبيعية ومضمون بعض الفترات ذات الأهمية لدى الضمير الديني.

وإذا كان (Lacoste) يقول عن Le Désert:

« فكره الصحراء Le Désert تعني كذلك مساحة شاسعة لا يمكن التحكم فيها بواسطة النظر، حتى وإن وجدنا فوق جبل عال».[11]

فإن هذا تعريف لا يخلو من التأويل الديني الذي يحمله مفهوم Désert. إلا أن هذا المفهوم أصبح يحمل بالإضافة إلى المفهوم الديني مفهوم الغيرية الجغرافية كونه يمثل فضاء لم يكن الإنسان الغربي قد تعود عليه، غير أن الوقوف أمام أو وسط هذا الفضاء سمح لشاعر مثل (Auguste COLIN) أن يعبر عن غيرية دينية وذلك في أنشودته "أغنية الصحراء، تمجيد لله ". حيث يقول على لسان الصحراء :

« الله، الله ! إليك أسبح!
الله، الله ! أسبح لعظمتك،
لأبديتك،
إني الصورة الحية. الله
أنت فقط المجيد الرحيم،
أنت فقط الانسجام،
أنت فقط التنافر،
أنت فقط، المجيد الرحيم،
أنت فقط تعطي الحياة
أنت فقط تعطي الموت،
الله، الله
الثناء عليك، أنت ملك العوالم.
الثناء في العظمة
لأن وحدتي العميقة
تملأها جلالتك.»[12]

نلاحظ هنا النظرة الإيجابية للآخر، و تقبله باختلافه. و ما كلمة "الله" في هذه الأنشودة إلا دليلا واضحا على الاعتراف بالغيرية الدينية لدرجة الانخراط فيها، والإيمان بها.

لم يغير القرن التاسع عشر النظرة إلى Le Désert ، من عالم خراب، إلى عالم له إيحاءاته الدينية، إلى الاعتراف بعالم يحمل غيرية جغرافية ثم غيرية دينية على نحو ما رأينا فحسب، بل استمر هذا التغير ليصل اللغة ذاتها. هذه الأخيرة التي أصبحت تعترف بالتسميات الواردة من الآخر، انطلاقا من تسمية (الصحراء) التي عوضت شيئا فشيئا كلمة Le Désert .

كلمة الصحراء/ LE SAHARA، التي أدخلها (FROMENTIN) بقوة إلى اللغة الفرنسية بعد أن كانت تكاد تكون مجهولة لعدم تناولها من طرف المجتمع الفرنسي وذلك بكتابه Un Eté dans le SAHARA ، وأخذ تسمية الصحراء من الصحراء ذاتها يعد تطورا في الموقف الغربي تجاه هذا العالم الجديد، واعترافا بهذه الغيرية.

وبعد دخول مصطلح الصحراء الحضارة الأخرى، فتح المجال لمصطلحات أخرى لها علاقة بكلمة الصحراء، مثل: ERG، التي استعملها (FROMENTIN) في الكتاب المذكور وكذلك كلمة HAMMADA التي هي الكلمة العربية "الحمادة".

ولعل دخول تسمية الصحراء الاستعمالات الغربية هو الذي سمح بدخول تسمية "الساحل" هذه الاستعمالات، كما جاء عند (FROMENTIN) في عنوان كتابه Une Année dans le Sahel.

وفي استعمال التسميات الأصلية لهذه المناطق التي تمثل العالم الآخر بالنسبة للإنسان الغربي:

« يجتمع تضاد شيئين: الحلم "بالمشهد الطبيعي" الذي تزيد فيه، مجازيا، الغرابة المقترحة للدال " كلمة أخرى لواقع، راديكاليا آخر" و بداية "علاقة تحكم وسيطرة" تجاه الفضاء الذي يتطلب القدرة على تسميته، لتحديد معالمه /.../ لتشكيل جغرافية خيالية للصحراء و إنجاز مؤسسة الخرائط الكولونيالية لهذه الصحراء وكذلك البحث عن كيفية التحكم في الفضاء الصحراوي. كلها أمور قد تعايشت في القرن التاسع عشر».(13)

إلا أنه وبالرغم من هذه الاستعارات، فإن قراءة الإنسان الغربي للفضاء الصحراوي بقيت محدودة. كون هذا الفضاء لا يخضع لقواعد وخطوط وأشكال وألوان وحركات وأحكام ومواد وسلالم يتعامل بها الغرب مع عوالم كان يتعامل معها.

ولعل هذا ما جعل وصف الصحراء يشكل مشكلا للكتاب الفرنسيين و على رأسهم (FROMENTIN)، الذي يسمي هذه الصحراء بالعالم الخارق، ويعترف بصعوبة تجسيد هذا العالم، سواء،أكان ذلك بريشة الرسام أو بقلم المبدع، كون هذا الأخير لا يمتلك مرجعيات خاصة بهذا العالم و إنما يجد نفسه أمام فضائل لا يخضع لذات المقاييس الغربية، سواء، كان ذلك يتعلق باللون، أو الصوت، أو الحركة أو يتعلق الأمر بالشعور تجاه هذا الفضاء، كون قساوته تظهر في كل الأعمال الأدبية مثلما تظهر في عظمته.

ومن ثم جاءت الاختلافات في القراءات، ابتداء من الألوان، فنجد الصحراء أحيانا "صفراء " وهو لون الفراغ واللاشيء، وأحيانا نجدها "زرقاء" وهو لون سماوي، وأحيانا تتعدد ألوانها.

بالإضافة إلى التركيز على الألوان والاختلاف حول تحديدها، تركز جل الأوصاف على ضوء الصحراء وشساعتها.

ولعل هذا ما جعل وصف الصحراء يشكل مشكلا للكتاب الفرنسيين و على رأسهم (FROMENTIN) الذي يسمي هذه الصحراء بـ"العالم الخارق"[14] ويعترف بصعوبة تجسيد هذا العالم سواء، أكان ذلك بريشة الرسام أو بقلم الروائي، كون هذا الأخير لا يمتلك مرجعيات خاصة بهذا العالم، و إنما يجد نفسه أمام فضاء لا يخضع إلى ذات المقاييس الغربية، سواء كان ذلك يتعلق باللون، أو الصوت، أو الحركة، أو تعلق الأمر بالشعور اتجاه هذا الفضاء، كون قساوته تظهر في كل الأعمال الأدبية مثلما تظهر عظمته، ومن ثم عدم خضوعه لحدود تسم للكاتب بالتحكم فيه، أو على الأقل وضعه في إطار محدد. وتبقى الصحراء عالم غير قابل للترجمة مثلما بقي غير قابل للتحكم السياسي.[15] ويمكن ملاحظة انتقال اهتمام الكاتب من وصف الفضاء الخارجي أي الصحراء إلى وصف الشخوص، حيث تصبح تعاوضية هذه الأوصاف

بالإضافة إلى أن قوة الضوء هذه هي التي شكلت سلوك ضيوف سي الجيلالي، فلم تستطع أعينهم أن تبقى مفتوحة، صامدة، بل جاءت رامشة أمام قوة الضوء الخارجي.

ويواصل (FROMENTIN) وصفه ضيوف سي الجيلالي حيث يقول:

« أوجه كبيرة ذات بياض وسخ لا تجاعيد في ووجوههم من دون صوت، ومن دون حركة».[17]

ويمكن ملاحظة التقارب الكبير والانسجام الكلي تقريبا بين الفضاء الخارجي والأوصاف التي يصف بها (FROMENTIN) هؤلاء الذي يوجدون داخل هذا الفضاء.

كما يجب الإشارة هنا، إلى دخول عنصر جديد في عملية الوصف، وهو عنصر سمعي يتمثل في صمت الضيوف وعدم قيامهم بأي حركة، من شأنها أن تحدث أي صوت.

ويواصل (FROMENTIN) واصفا خدم هؤلاء الضيوف يقول:

«الرجال الذين يخدمونهم، كانوا يلبسون الأبيض مثلهم، و مثلهم صامتون، يمشون من الخيمة إلى المطبخ من دون صوت».[18]

لو تمعنا الآن فيما جاء في وصف (FROMENTIN) في هذه الفقرات مجتمعة فإنه يمكن استنتاج ما يلي:

1 ـ عناصر وصف بصرية.

أ ـ أن الضوء في الصحراء هو الذي يحدد الألوان.

ب ـ الألوان تتميز كونها ألوانا باهتة ـ لون الظل، اللون الأبيض ـ ولعل هذا يعود لقوة ضوء الشمس في الصحراء الذي يبقى النور واللون الأساسي والطاغي على باقي الألوان.

2 ـ عناصر وصف سمعية:

أ ـ عدم الحركة.

ب ـ الصمت.

جـ ـ السكون الذي يسيطر على الفضاء.

وعندما تجتمع هذه العناصر السمعية البصرية تعطينا منظرا أقل ما يقال عنه أنه منسجم؛ كل شيء باهت، ساكن، تحت رحمة ضوء الصحراء، الطاغي على كل شيء. لا حركة، لا لون، لا صوت، أما الزمن فقد توقف أمام حدود لا ترى، وهو الزمن الصحراوي الذي أدخل (FROMENTIN) أبعادا لم يكن متعودا عليها.

الهوامش

(1) نقصد هنا بالدليل أو ما يسمى كدلك بالمرشد ما كان يقدم للسواح وللذين يريدون السفر إلى الجزائر ومن أشهر المؤلفات التي لاقت شهرة كبيرة آنداك:

Le Guide Bleu, Le Guide de Joanne

(2) Michèle SALINAS : Voyages et Voyageurs en Algérie, 1830-1930 . Au sources d'un imaginaire collectif français. Privat, Toulouse, France, 1989, p .322.

(3) Y. LACOSTE : « Unité et Diversité des Déserts », in Paysages politiques, Biblio-Essais, Paris, 1990, p.243.

(4) أنظر حول هذا الموضوع :

Guy BARTHELEMY : FROMENTIN et l'Ecriture du Désert, L'Harmattan, Paris, 1997, p p.13.18.

(5) Ibid. p.19.

(6) أنظر :

J.P.CHARNAY: Les Contre Orients, Sindbad, Paris,1980 pp. 115,120.

(7) G. BARTHELEMY : op. cit. pp.40,41.

(8) E. FROMENTIN : Un Eté dans Le Sahara, p.57.

(9) M. SALINAS : Voyages et Voyageurs en Algérie, op. cit. p.327.

(10) E. FROMENTIN:Un Eté dans le Sahara, op.cit. pp.26, 27.

(11) Yves LACOSTE : op. cit. p.246.

(12) David COLIN :Cité par G. BARTHELEMY, op. cit. p.36.

(13) G. BARTHELEMY : op. cit. p. 41.

(14) انظر ما جاء حول هذا الموضوع خاصة في كتاب :

Christiane ACHOUR : Les Discours Etrangers, Production et Réception, OPU, Alger, 1986, pp. 251, 256

(15) Loc. cit.

(16) E. FROMENTIN : Un Eté Dans le Sahara, op. cit. pp.27

(17) Ibid : pp.27,28

(18) Loc. Cit.